

Religious Intertextuality in Mahmoud Darwish's Poetry: A Case Study of the "La'ab Al-Nard" Ode

Narges Ganji ¹, Somayeh Kazemi Najafabadi ^{2*}

¹ Associate Professor of Arabic Language and Literature at the University of Isfahan

² Ph.D. candidate at the University of Isfahan

*Corresponding author: Skazemin@yahoo.com

DOI:

Received: 10 May, 2018

Revised: 24 July, 2018

Accepted: 18 Augu, 2018

ABSTRACT

A symbol is an emblem used with the aim of expressing the existential feelings of a poet about a particular subject. The poet has borrowed such a style from prior experiences in order to use it with regard to current events. The reasons for this choice of style are the following: the inability of everyday language to express the present events and the absence of freedom in the society where the poet lives. Similarly, the Palestinian poets have made use of symbols for expressing the bitter realities of life through the compilation of modern poetry by borrowing traditional symbols. Such a connection is realized between the present and previous texts in the light of inter-textual knowledge. Mahmud Darwish is one of the poets who attempted to use various symbols in order to express the social issues of his own community. Therefore, following a descriptive and analytic method, the present study has studied the intertextuality of "La'ab al-Nourd" ode as an example in order to analyze the symbols used in this poem by focusing on the intertextual concept.

Key words: Intertextuality, Palestine Poetry, La'ab al-Nourd ode, Mahmud Darwish.

التناص الإيحائي في شعر محمود درويش؛ قصيدة "لاعب النرد" أنموذجا

فرانس گنجی¹، سمیه کاظمی نجف آبادی²

1. أستاذة مساعدة في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة إصفهان

2. طالبة في مرحلة الدكتوراه بجامعة إصفهان

*نويسنده مسئول مقاله Email: Skazemin@yahoo.com

DOI:

بديوش: 97/05/27

اصلاح: 97/05/03

دریافت: 97/02/08

الملخص

يعتبر الرمز وسيلة للتعبير عن خلجات النفس التي يعيشها الأديب تجاه موضوعه. يستمد الأديب من الأسلوب الرمزي ويوظف التعبير الإيحائي عبر استخدامه للخلفية المعرفية التي يكتسبها من إنتاجات السابقين وذلك لأسباب عدة من أهمها؛ عجز اللغة التقريرية عن التصريح وانعدام الحرية في المجتمع الذي يعيش فيه الأديب. تميّز شعراء الأرض المحتلة فلسطين في استرفاد التعبير الرمزي والارتداد إليه لعرض واقعهم المرّ وفهم متناقضاته في أرض سلبها العدو الصهيوني ظلما وجورا وذلك بتشكيل النص التناصي الذي يدخل في علاقات متشابهة مع نصوص سابقة أو معاصرة، من نصوص دينية، تاريخية، اجتماعية، أدبية، أسطورية والخ. ومن أبرز شعراء فلسطين الذين تميزوا باستخدامهم للتناص الإيحائي يمكن الإشارة إلى محمود درويش الذي يعتبر رائداً من روّاد شعر المقاومة والذي كرّس حياته لفنه وفنه لقضيته الإنسانية؛ قضية الوطن الحبيب الذي وقع في الأسر، وقد تميزت قصائده في دواوينه الأخيرة بتوظيف الرموز المختلفة بشكل مكثف عميق وموحٍ، خاصة قصيدة "لاعب النرد" التي تعتبر آخر قصيدة أنشدها الشاعر قبيل غروب شمس حياته. بناء على هذا يهدف هذا البحث إلى أن يتناول قضية التناص الإيحائي وفاعليته عبر دراسة تجليات الرمز في قصيدة "لاعب النرد" على المنهج الوصفي التحليلي ليبرز أهم ما جاء فيها من الصور الشعرية الرمزية التي وظّفها الشاعر في سياقات القصيدة.

الكلمات الدليلية: التناص الإيحائي، الشعر الفلسطيني، قصيدة "لاعب النرد"، محمود درويش.

1- المقدمة

إن المصطلحات التي تزخر بها الساحة النقدية تسعى إلى الولوج إلى عالم النص من خلال نوافذ نقدية متعددة؛ منها نظرية التناس التي توفر لنا مدخلا مناسباً لفهم النص الشعري. وتمكّنا من سبر غور نفسية الشاعر لحظة الإبداع.

والتناس مصطلح ظهر حديثاً في تاريخ النقد الأدبي تحديداً في منتصف الستينات من هذا القرن في أبحاث متفرقة قامت بنشرها الناقدة جوليا كرستيفا في مجلتي تيل-كيل وكرتيك في فرنسا (خمري، 1987م، 115). وهو بمعنى: «أن يتضمن نص ما نصوصاً أو أفكاراً أخرى سابقة عليه، عن طريق الاقتباس أو التضمين أو التلميح أو الإشارة إليه أو ما شابه ذلك المقروء الثقافي لدى الأديب، بحيث تندرج هذه النصوص مع النص الأصلي ليتشكل نص جديد متكامل» (الزغبى، د.ت، 5)، فبذلك يعد التناس من أبرز التقنيات الفنية التي تكشف لنا عن تداخل النصوص، وتؤكد لنا أن النص مبني على طبقات من النصوص المترامنة له والسابقة عليه. هذه النظرية تقدم للناقد فرصة حقيقية لكي يتبين تطور لغة الشاعر، وطريقته في بناء قصيدته، ويكشف عن مصادر معرفته وثقافته.

إن ظهور التناس في الشعر المعاصر يدل على ثقافة شمولية قد وظّفها الشعراء في تطلعاتهم ومقاصدهم وأفكارهم الشعرية على نطاق واسع، حيث يمنح النص ثراءً وغنى، ويسهم في البعد به عن حدود المباشرة. أما الإيحاء أو الرمز فهو عبارة عن إشارة تومئ من طرف خفي إلى أمور لا يريد أن يذكرها الأديب صراحة؛ لغرض في نفسه، أو أن اللغة التقريرية المباشرة تعجز عن إدراكها والتعبير عنها، وهو من العناصر الجوهرية في النص الأدبي منذ القدم. توظيف الرمز في النص الأدبي يعطى النص حركة فاعلة في كلماته ودلالاته بحيث يجتاز الحاضر إلى الماضي في تناسق بديع متى ما أحسن اختيار الرمز المعبر عن الفكرة التي يطرحها النص، هذا بالإضافة إلى أن استخدام الرمز خاصة الرموز التراثية يضيف على العمل الشعري عراقة وأصالة لتغلغل جذور الحاضر في تربة الماضي الخصبة، كما أنه يضيف على الرؤية الشعرية نوعاً من الشمول والكلية، حيث يجعلها تتخطى حدود الزمان والمكان، ويتعاقب في إطارها الماضي مع الحاضر

(lahaonline.com)

إن توظيف الرموز الإيحائية أصبح من أهم الظواهر الأدبية والأسلوبية التي كشفت عن عمقها وسيطرتها على لغة القصيدة الحديثة، وتراكيبها وصورها وبنياتها المختلفة فإنه يسهم في الارتقاء بشعرية القصيدة وعمق دلالاتها، وشده تأثيرها في الملتقى. يستمد الشعراء من التعابير الرمزية والإيحائية لأسباب عدة أشرنا آنفاً إلى

بعضها، وكذلك منها؛ «الشعور بالعجز عن التصريح، أو الخوف من التصريح الذي قد يجبر إلى التعرض للأذى من قبل الحكومة، أو الرغبة في التحدث بشكل مقنع و إنشاد شعر ذو طابع غامض لكي يحرض النفوس على التفكير والتأمل في الوصول إلى مراد الشاعر خلف تعابيره» (الجندي، د.ت، 399 - 411).

لجأ كثير من الكتاب والأدباء المعاصرين في الوطن المحتل الفلسطيني إلى استخدام التعبيرات الإيحائية، لأن الاحتلال الصهيوني حارب الحركة الأدبية الفلسطينية، ولاحق الكتاب الفلسطينيين الذين يعبرون من خلال كتاباتهم عن انتمائهم للوطن والقضية، وكان الأمر يصل إلى الاعتقال وإغلاق بعض الصحف والمجلات وإيقاف صدورها (على عبدالرحمن جعيد، 2006م، 61).

من بين الشعراء المعاصرين الذين أبرزوا براعات أدبية في استخدامهم لظاهرة التناسل يمكن الإشارة إلى محمود درويش الذي يجسد وعيا حادا بالتناسل وأهميته للإبداع؛ فهو يمثل ظاهرة فريدة في الشعر العربي المعاصر على مستويات النتائج الإبداعية كما وكيفا، وشعره يتكشف عن ثقافة رفيعة، ويبدى ملاحظة حفرية لأفق واسع من النصوص الرائقة: عربيا وعالميا، كما أنه يعتبر من أبرز شعراء فلسطين الذين استمدوا من الرموز والإحياء الشعرية في أعمالهم الأدبية؛ فهو لعب دورا رياديا في الأدب المقاوم الفلسطيني؛ واختص به نصيب وافر من الدراسات الأدبية، وتميز بأسلوبه الفريد في استخدام الرموز والأساطير في أعماله الشعرية، خاصة في قصيدة "لاعب النرد" التي تعتبر آخر قصيدة نظمها الشاعر، والتي تحمل في مطاويها أبرز الخصائص الفنية والأدبية التي توحى بوصول الشاعر إلى مرحلة النضج الفكري والأدبي في مختلف المجالات خاصة في مجال توظيف الرموز والإحياء الشعرية المبدعة التي جعلته متميزا عن غيره.

انسياقا لهذا يهدف هذا البحث إلى أن يقوم بدراسة التناسل الرمزي والإيحائي في قصيدة محمود درويش الأخيرة التي تمثل وصول الشاعر إلى مرحلة النضج الأدبي في الدفاع عن القضية التي تتعلق بالوطن الحبيب الذي وقع في الأسر وبالإحسان الفلسطيني ومعاناته وذلك للكشف عن طبيعة هذا النوع من التداخل النصوي عند محمود درويش والتعرف على دلالاته وأبعاده الفنية والجمالية.

وبالنسبة إلى خلفية البحث يجدر بنا القول إن العديد من الكتاب والباحثين تعرضوا إلى البحث والدراسة في ظاهرة التناسل في الشعر العربي المعاصر عامة والشعر الفلسطيني على وجه الخصوص. فمن المقالات والأطاريح التي تصدت لهذه الظاهرة يمكن الإشارة إلى ما يلي:

- مقالة بعنوان: «التناسل في مختارات من شعر الانتفاضة المباركة»؛ لعبدالرحيم حمدان.

- مقالة تحت عنوان: «التناسل الديني في الشعر الفلسطيني المعاصر»؛ لنظمي بركة.

- مقالة تحت عنوان: «التناسل القرآني في الشعر العماني الحديث»؛ لناصر جابر.

- مقالة بعنوان: «التناص الأسطوري في شعر سميح القاسم»؛ لسامية عليوى.
- مقالة بعنوان «ظاهرة التناص في لغة محمود درويش الشعرية»؛ لمرضية زارع زرديني.
- مقالة تحت عنوان: «التناص الأسطوري في شعر أمل دنقل»؛ لحسين ميرزائي، وسيد إبراهيم آرمن.
- أطروحة بعنوان: «توظيف التراث في الشعر العربي المعاصر في مصر»؛ لعبد الناصر هلال.
ولكن ما يميز هذا البحث من بين الدراسات التناصية هو أنه تطرق إلى الكشف عن مكامن التداخل النصوى فى القصيدة الأخيرة التى نظمها محمود درويش، وذلك لتبيين تطور لغة الشاعر الإيحائي فى المرحلة الأخيرة من حياته الإبداعية.

2 - الإيحاء الشعرى عند محمود درويش

من أبرز خصائص محمود درويش الفنية أنه لم يعد إلا فى القليل النادر يعبر عن تجاربه تعبيرا مباشرا، بل لجأ إلى الإيحاء والرمز والأسطورة والقصة الشعرية للتعبير عن تجاربه المختلفة التى على صلة وثيقة بواقع الاحتلال. على أنه رغم لجوئه إلى الإيحاء والأساطير والقصص الشعرية فى بناء قصائده، لم يفقد الوضوح الفنى والأدبى، لأنه شاعر مرتبط بالجماهير العربية فى الأرض المحتلة يريد لشعره أن يصل إلى هذه الجماهير ويسهم فى التعبير عنها. هناك سبب آخر وراء لجوء الشاعر إلى الرمز والإيحاء فى شعره وهو محاولة التعبير عن قضيته الوطنية بعيدا عن سطوة الرقابة السياسية الإسرائيلية (خليل جحا، 2003م، 473).

يقول محمود درويش نفسه عن سبب اختياره للرمز والإيحاء إن «الرمز عندى كما تراه ليس مبهما، أنه يكتشف بسرعة، وهو أول الأمر وآخره بديل للتعبير المباشر. كان من دوافع لجوئى إلى الرمز فى البداية محاولة تخطى الواقع الذى لا يتيح لى إمكانية الحديث بشكل مباشر لأسباب سياسية فكان لا بد لى من ممارسة الاحتياى الفنى ليعكس واقعى. إن استخدامى الرمز جاء لإغناء واقعى وخدمته» (زيدان، 2009م، 264).

تتميز الإيحاءات الأدبية فى شعر محمود درويش بأنها كثيرة الصور، وعميقة التأثير، وتحتاج إلى تفصيلات كثيرة لإدراك أبعادها المتعددة، كما أنها بمثابة أداة معرفية لإدانة الهزائم التى تعانى منها الأمة العربية فى هذا العصر. من المؤكد أن الرموز والإيحاءات لا تتوارد على الأديب بطريقة عشوائية، بل تستقى من مصادر عدة متناغمة مع رؤية الشاعر الفنية وتجربته الإبداعية والموقف الذى يريد التعبير عنه، فهى تعطينا صورا جلية وواضحة من حياة الشاعر النفسية والاجتماعية، وتكشف عن ثقافات توارت عنا بفعل عمق الزمان وبعد المكان.

تتباين الرموز والإيحاءات الأدبية في قصائد درويش وتختلف كتابين استخدام الأدياء لها، فمن الإيحاءات المتجلية في قصائده والتي على تداخل مع النصوص الأدبية الأخرى يمكن الإشارة إلى الإيحاءات الدينية، والتراثية، والأدبية، والشعبية، والأسطورية.

3 - التناص الإيحائي في قصيدة "لاعب النرد"

محمود درويش شاعر ينحت لنفسه رموزاً مبدعة تبدو حين نقرأها في سياقاتها، وكأنها خرجت للتو من قاموس جديد هو صانعه، وهي عديدة لا حصر لها حتى يبدو وكأن مفردات اللغة تحولت إلى رموز بين يديه (أغبال، د.ت، 149). للإشارات الرمزية والدلالات الإيحائية قيمة معنوية كبيرة في قصائد درويش خاصة في المرحلة الأخيرة من حياته الأدبية؛ تلك المرحلة التي بدت سمات النضج الفني واضحة بارزة في إبداعات الشاعر الأدبية، واللافت للنظر أن الشاعر استمد من الدلالات الرمزية في قصائده الأخيرة بنسبة كبيرة مما جعلها تتحول إلى ميزة أسلوبية بارزة في هذه القصائد وقد بلغ مدى تجاوب الشاعر لهذه الرموز الشعرية غايته القصوى خاصة في قصيدة "لاعب النرد" التي تمثل نهاية حياة الشاعر الفنية، فالقصيدة مليئة بالرموز والإشارات والإيحاءات التي لا تتكشف مدلولاتها إلا بعد متابعة سياقات القصيدة وصورها المتشابكة المترابطة ومن هذه الرموز الإيحائية التي تدخل في دائرة النصوصية ما يلي:

3 - 1 - الإيحاء الديني

الرموز والإيحاءات الدينية التي يستقى منها الأدياء المعاصرين بكثرة على ثلاثة أقسام: الرمز الإسلامي - القرآن، الرمز التوراتي، والرمز الإنجيلي (المسيحي). توظيف الرموز الدينية بأنواعها المختلفة يجسد روح التأخي والتلاحم بين أصحاب الأديان الثلاثة في الوطن العربي عامة كما يبرز الروح التي نفختها الأديان الإلهية في جسد الشاعر العربي، خاصة الشاعر الفلسطيني المقاوم الذي يستلهم رموزاً من التراث الديني ومن الشخصيات الدينية في خدمة قضيتته الإنسانية والوطنية.

يستمد الشاعر الفلسطيني من الرمز الديني بعدة أشكال: الشكل الأول هو الرمز الذي يستلهمه الشاعر من اقتباس أو تضمين لآية قرآنية أو حديث نبوي أو قصة دينية، ويستدعيه لحاجة في نفسه، هذا الرمز يختلف من شاعر لآخر حسب ما يقتضيه نصه الشعري. والشكل الثاني هو استدعاء الشخصيات التراثية الدينية، أمثال آدم، وقايل، ونوح، وأيوب، ويوسف، وهاجر، وخديجة عليهم السلام والنبى محمد صلى الله عليه وآله (زارع، 1388، 82)، وليصبح الأمر أكثر وضوحاً وقع الاختيار على أمثلة من الرمز الإسلامي في شعر محمود درويش:

لقد وظف محمود درويش كثيرا من الرموز الدينية في قصائده واقتبس من الآيات القرآنية، نحو قوله: «اليوم أكملت الرسالة فانشروني: إن أردتم، في القبائل توبه / أو ذكريات / أو شرعا / اليوم أكملت الرسالة فيكم / فلتطفئوا لهبي، إذا شئتم، عن الدنيا / وإن شئتم فزيدوه اندلاعا»، حيث تأثر بالآية الكريمة (اليوم أكملت لكم دينكم) (المائدة 5: 3)، متوخيا أن البطل الفدائي كالنبي يحمل رسالة فأكمل اليوم ذاك البطل الفدائي رسالته وأعطى أهل لبنان اختيارا في التأسى به في إطفاء لهيبه المضىء أو في زيادة اندلاعه (المصدر نفسه). هذه الآية الكريمة تدل على أن البطل الفدائي أصبح رمزا للنبي (&)، وقد اختفت هذه الدلالة الرمزية والإيحائية في ثنايا اقتباس الشاعر لهذه الآية الشريفة، فبذلك أصبح استخدام الرمز بأنواعه المختلفة يدخل في دائرة التناس أو التعالق النصي.

كما أن درويش استدعى من الشخصيات التراثية الدينية، شخصية النبي أيوب (U) عندما شعر بالضياع والألم الشديد، فقال: «أيوب مات» متوخيا أن صبر الفلسطينيين انتهى. وقد استخدم من القصص القرآنية قصة أهل الكهف وقصة نوح ويوسف عليهما السلام في قصائده بدلالات إيحائية جديدة، واستوحى شخصية مسيح (U) رمزا للفتاة والتضحية، والصليب رمزا للعذاب الدائم الذي يعانيه الإنسان الفلسطيني (زارع، 1388، 83 - 84).

أما الإيحاءات الدينية في قصيدة "لاعب النرد" فهي على ما يلي:

• الصليب

«الصليب» هو الرمز الذي يتكرر كثيرا في قصائد محمود درويش، وذلك لأن الشاعر العربي الذي يعيش في الأرض المحتلة يحس أنه مصلوب هو وشعبه وأرضه (النقاش، 1972م، 210). الصليب رمز للمأساة الفلسطينية، رمز للاضطهاد والمعاناة التي لقيها الإنسان في تلك القطعة الأرضية المقدسة. يهدف الشاعر إثر استخدامه للفظ «الصليب» إلى المقارنة بين معاناة الفلسطيني ومعاناة المسيح في الأرض ذاته، حيث يقول:

من سوء حظي أن الصليب

هو السلم الأزلّي إلى غدنا!

الصليب في شعر محمود درويش يشير إلى الجو النفسي الذي يعيش فيه الشاعر ويشير أيضا إلى المأساة الفلسطينية، فالشاعر يحس أنه يعيش في جو من الاضطهاد والمطاردة من العدو الإسرائيلي، وفلسطين نفسها ممزقة ومصلوبة على يد هذا العدو نفسه، والشاعر أيضا مصلوب مثل وطنه فلسطين (النقاش، 1972م، 211).

• المسجد

المسجد رمز الإسلام وهو المكان المقدس الذى تقام فيه الشعائر الإسلامية، وقد استخدم درويش لفظة المسجد فى قصيدة "لاعب النرد" بطريقة إيحائية عندما يقول:

وخفتُ على قطتى وعلى أرنبى

وعلى قمر ساحر فوق مئذنة المسجد العالیه

اختيار لفظة المسجد ليس تلقائياً بل هناك سبب دفع الشاعر إلى إظهار مشاعر الخوف للقمر الواقع فوق مئذنة المسجد فكأنه أراد أن يعبر عن خوفه على المسجد كرمز للإسلام فى الأرض المحتلة بشكل غير مباشر، فكل شيء يواجه الخطر فى تلك القطعة الأرضية حتى الأديان الإلهية. والجدير بالذكر أنه أشار إلى «الكنيسة» قبله حين يقول:

مَنْ أَنَا لأقول لكم

ما أقول لكم

عند باب الكنيسة

يؤكد درويش الذى يتضمن شعره رمزية إسلامية، مسيحية ويهودية على موروث له مزدوج قائلاً: «ليست لدى هوية ثقافية عربية خالصة، أنا نتيجة مزيج حضارات ماضى فلسطين، لا أحتكر التاريخ والذاكرة، كما يريد الإسرائيليون أن يفعلوا، إنهم يضعون الماضى فى ساحة المعركة». وفى مكان آخر يقول: «لا أحب أن نتقاتل على الماضى، ولنذع كل واحد يروى سرده كما يشاء، ولنذع السردين يجربان حواراً، وسوف بيتسم التاريخ» (<http://darwesh.4fun4.net/Life.php>). فمن المؤكد أن الإشارة إلى المسجد ومئذنته العالیه إلى جانب الكنيسة فى هذه السطور تمشى مع الهدف الذى يسير الشاعر وراءه، وهو يحاول أن يثبت خطواته فى طريق البيان الزلقة كى لا يسقط فى هاوية العداوة مع أبناء القوم الذين سلبوا الحرية والاستقلال من الشعب الفلسطينى. استخدام درويش لهذه الرموز والرموز الإنسانية المتعددة من مختلف الديانات، يبرز روح التسامح الإنسانى التى يتحلّى بها الشاعر فى أوج الصراع العربى الصهيونى، كما يجسد انصهار الديانات المختلفة فى ظرف شعره، لأن الروح التى حلت فى جسد الأديان واحدة إنها روح الثورة والتمرد على الظلم.

• المسيح

لا غرو أن شخصية السيد المسيح (عليه السلام) لها حضور قوى في قصائد محمود درويش، فالتشابه كبير بين نبي الله وبين الشاعر، فكلاهما من الجليل، وكلاهما تعرّض للاضطهاد، وكلاهما رأى في الفداء خلاصاً. المسيح رمز للبطل الثورى، رمز للفلسطينى المعذب الذى يريد لوطنه التحرر والكرامة، رمز لكل صاحب فكر نبيل تعذب من أجله، والناصرى الذى أشار إليه درويش هو المسيح الذى أصبح رمزاً لمن يمثل الرحمة أمام واقعه المر الذى يعايشه هو وشعبه فهو الذى يبقى حياً فى الأرض المحتلة ولا يموت هو وقضيته فى تحرير الإنسان من الظلم والطغيان بل تمثلت روحه فى جسد الأبطال الثوار بحيث أصبح كل صاحب قضية مسيحا فى الأرض المقدسة:

أعمد ريشى بغيمة البحيرة

ثم أطيل سلامى

على الناصرى الذى لا يموت

لأنّ به نفس الله

والله حظّ النبىّ ...

3 - 2 - الإيحاء التاريخى (توظيف التراث)

يحتلُّ التاريخ مكانة كبيرة فى تكوين الأديب الثقافى بحيث يمكن الأديب من التعبير بحرية أكثر عن تجارب ومعان لا يجرؤ على التعبير عنها بطريقة مكشوفة ومباشرة. لا يتعامل الأديب المعاصر مع التاريخ على أنه حقائق مجردة، أى أنه لا يومئ إلى إشارة أو حدث أو اسم من التاريخ كما يفعل المؤرخ الذى تهمة الحقائق وإنما يضيف عليها من ذاته وواقعه، وطبيعة الحالة النفسية التى أثارت فيه حوافز الاستعانة بجزء من التاريخ، وهو يتعامل معها وفق قناعاته بما تكتنفه هذه المادة التاريخية من قيمة معنوية، ودلالة إيحائية يريد إيصالها إلى ذهن المتلقى (فؤاد السلطان، 2010م، 3)، فالتاريخ يشكل جزءاً مهماً من ذاكرة الشعب وهويته والأديب البارع هو الذى يتخذ من التراث الشعبى والحقائق التاريخية مادة غنية يضيف عليها شيئاً من روحه ليكون هو وأدبه حلقة وصل بين الحاضر والماضى.

لقد وجد الأدباء المعاصرون فى التاريخ ملاذاً آمناً يستطيعون من خلاله التعبير عن أفكارهم وقضاياهم وهمومهم فى عالم الواقع باستدعاء ما يتلاءم ويتناغم مع طبيعة هذا الواقع من أحداث وشخصيات ومواقف تاريخية، ومحمود درويش كسائر الأدباء المعاصرين خاصة أدباء الأرض المحتلة ليس بمعزل عن استخدام الحقائق والرموز التاريخية فى قصائده كوسيلة تعبيرية فى خدمة القضية الوطنية، وقد تداخلت الرموز والإيحاءات التاريخية والدينية عنده بحيث لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر فكثيراً ما تكون الرموز التاريخية رموزاً دينية كما أن كثيراً من الرموز الدينية هى رموز تاريخية. أما الرمز التاريخي وتوظيفه فى قصائد محمود درويش فعلى عدة أنواع، منها:

1.2. استدعاء الشخصيات التاريخية

تمتع شاعر المقاومة عادة بحساسية شديدة بالتاريخ كجزء من تمسكه بجذور عميقة تعينه على الصمود، فأتكأ على شخصيات قديمة واستدعى الشخصيات التراثية وأحداث تاريخية فى قصائده. ومن الشخصيات التى استرجعها درويش كواحد من أبرز شعراء المقاومة يمكن الإشارة إلى خالد بن وليد، وصلاح الدين الأيوبي وغيره. أشار محمود درويش إلى شخصية خالد بن وليد وصلاح الدين الأيوبي كرمزين للقائدين المنتصرين ليعكس عزة الأمة الإسلامية وبطولة قوادها فى الماضى ويصور أوضاع الأمة العربية التعسفية فى الزمن الحاضر (زارع، 1388، 93 - 94). استدعاء مثل هذه الشخصيات هى فى الحقيقة محاولة لقراءة الواقع العربى، لنعرف من خلال هذه المقارنة بين الماضى والحاضر مقدار الخلل الذى أصاب الأمة العربية فى حاضرها وما يمكن الاستعانة به من تجارب الماضى حلولاً لمشاكلها المشابهة لمشاكل الأجداد (فؤاد السلطان، 2010م، 3).

2.2. استدعاء الأحداث التاريخية

أشار محمود درويش فى قصائده إلى بعض الأحداث التاريخية التى كان لها وقع كبير فى تاريخ الأمة العربية للتعبير عن القضية العالقة فى ذهنه؛ القضية التى لها صلة وثيقة بواقع الأمة العربية، وكأن الشاعر استدعى الأحداث التاريخية واستمد منها فى قصائده بشكل مكثف ليشير إلى النظام الرجعى الذى يتبعه التاريخ عبر العصور المختلفة فالمعروف أن التاريخ يعيد نفسه، فهذه الأحداث ولو كانت بعيدة عن الشعب بفعل بُعد الزمان والمكان ولكنها قريبة من أذهانهم لأنهم يعايشون حادثة متشابهة لما مرّ على أجدادهم فى غابر الأزمنة. ومن

التناس الإيحائي في شعر محمود درويش؛ قصيدة "لاعب النرد" أنموذجا

الأحداث التاريخية التي أشار إليها الشاعر في قصيدة "سنونو التتار" هي هجمة التتار حيث يقول: «وكان التتار / يدسون أسماءهم في سقوف القرى كالسنونو / وكانوا ينامون بين سنابلنا آمنين». قصص الروم والفرس وتيمور لنك وهولاكو وبونابرت تشير بوضوح إلى قضية الاحتلال وموقف درويش منها ورؤيته لها، فهذه الأقوام أقيام محتلة زال احتلالها وانقضى زمن سيطرتها على الأمم المجاورة، ويهود اليوم مهما طال احتلالهم فهو سائر إلى زوال مثل زوال احتلال سابقهم ففي هذه الرموز إشارة إلى تشابه احتلال اليوم باحتلال الأمس وضياع الأمة اليوم كضياعها في زمن الصليبيين والتتار (خليل الخلايلة، 2009م، 268).

3.2. استدعاء الأماكن التاريخية

يسترجع الشاعر كثيرا من البلدان والمدن التاريخية التي كان لها تاريخ ملئ بالأحداث والحروب والفتن، نحو الأندلس، وغرناطة، وسمرقند، وقرطاج، وقرطبة، وكوبا، وأورشليم، وطروادة، و... فيذكر سقوط الأندلس التي أصبحت رمزا للهزيمة بين شعراء العرب، ويشير إلى عكا وغرناطة كرمزين للصمود ليستنهض الهمم الخاملة (زارع، 1388، 95 - 96).

قراءة تحليلية في قصيدة "لاعب النرد" توضح لنا أن الشاعر لم يوظف الرموز والإيحاءات التاريخية في قصيدته الأخيرة بكثافة وإنما استخدم رمزا واحدا يسير في المسار التناسي مع القصص التاريخية، وهي:

• القافلة

القافلة هي الرمز الذي يرمي إلى قصة دينية تاريخية حظيت بمقام عظيم في القرآن الكريم حيث لُقبت بأحسن القصص وهي قصة النبي يوسف (U)، «فالإشارة إلى الرؤيا والقوافل والبئر القديمة كلها توحى بحضور قوى لقضية يوسف، وترتبط بمعالم تجربة جديدة تتحدد من خلال التعبير عن الإحساس بالنفى والترحال والوحدة والفراغ» (فؤاد السلطان، 2010م، 28)، وإلى هذا أشار محمود درويش في قوله:

كان يمكن أن لا أكون

وأن تقع القافلة

في كمين، وأن تنقُص العائلة

ولداً

فی هذا المقطع الشعري استلهم الشاعر قصة النبي يوسف (U) وغدر إخوته به فالفافلة التي وقعت في كمين والعائلة التي فقدت ولدها كل هذه الأمور يوحي بقصة حياة النبي يوسف (U)، وما لقي من الغدر والظلم من ناحية إخوته.

3 - 3 - الإحياء الأسطوري

تحتل الإشارات والرموز الأسطورية حيزاً كبيراً من الشعر العربي الحديث بحيث أصبح الابتعاد عن المباشرة من أهم منجزات الشعر الحديث. الرمز الأسطوري انعكاس للاشعور الجمعي أو بالأحرى نتاج معرفي جمعي له امتداد في الماضي والحاضر والمستقبل، وبه يحضر الماضي في وعاء الحاضر ليمتد ويتكرر في المستقبل. أشهر الأساطير الموظفة في الأدب العربي الحديث مستوحاة من التراث القديم، وقد تكون الرموز جديدة يخلقها الشاعر المعاصر وينشئ بها الأسطورة الجديدة لإثراء الشعر بالمعطيات التراثية من الثقافات المختلفة، وهو في هذا يحتاج إلى قوة ابتكارية فذة يستطيع بها أن يرتفع بالواقعة الفردية المعاصرة إلى مستوى الواقعة الإنسانية العامة ذات الطابع الأسطوري (<http://nasser26keb.3arabiyate.net/t300-topic>).

والجدير بالذكر أن محمود درويش واحد من كبار الشعراء العرب الذين قطعوا شوطاً كبيراً في توظيف الأسطورة وأسطرة قصائدهم لتحمل الأسطورة عبء التعبير عن تجربة الشاعر الإبداعية، ورؤيته الفنية والفكرية. وقد استمد في استخدام الأساطير القديمة من الأساطير اليونانية (أورفيوس، سيزيف، أوديب)، والبابلية (عشتاروت، تموز)، والمصرية (أوزوريس)، والمسيحية (المسيح، لعاذر) بخياله الخصب الذي يتجاوز الواقع لكنه لم يعتمد على الأساطير كلية بل أخذ جزءاً منها ثم وظّفها في سياق قصيدته بدلالات إيحائية جديدة لبيان أفكاره وتجاربه (فؤاد السلطان، 2010م، 23).

من المؤكد أن درويش كان يرمى إلى هدف خاص من خلال استخدامه لهذه الإشارات الرمزية والأسطورية «فتوظيف درويش للأسطورة، كان على أساس أنها تؤدي معنى إنسانياً في الحاضر، فقد ألبسها معاناة الإنسان المعاصر ومشكلاته وهمومه، فعدت الأسطورة جسراً بين الماضي والحاضر لاستشراف المستقبل، ووظفت في شعره بمعناها الحضاري، لا بمعناها التاريخي» (فؤاد السلطان، 2010م، 18).

ومن الرموز الأسطورية في قصيدة "لاعب النرد" يمكن الإشارة إلى الرمز التالي:

• نرسييس

نرسييس هو الفتى الأسطوري الذي عشق صورته عندما أطال النظر في مرآة ذاته، وقد أصبح رمز الغرور والأناية في الأدب العالمي. حضور هذه الأسطورة في القصيدة يدل على طمس معالم الحقيقة وعدم القدرة على رؤية الجمال الذي لا يكون إلا بارقة من بوارق الحق والحقيقة. توظيف مثل هذه الأساطير ليس إلا وسيلة لإقامة الحوار بين الأجيال والثقافات المختلفة في سبيل تعزيز اللغة الأدبية والثقافة العربية، حيث يقول الشاعر:

هكذا أتحايل: نرسييسُ ليس جميلاً

كما ظنّ لكنّ صنّاعه

ورطوه بمرآته فأطال تأمله

في الهواء المقطّر بالماء ...

لو كان في وسعه أن يرى غيره

لأحبّ فتاةً تحمق في

و«المرأة» التي تدل على الحقيقة وتكون رمزا للصدق تحولت في هذه السطور الشعرية إلى رمز للغرور والكبرياء والأنفة، لأنها أصبحت في يد نرسييس. لقد امتلك نرسييس مرآة تخصه تبرز الحقيقة كما يرى صاحبه ويحب، فلو أن نرسييس تخلص من قيد النخوة والغرور وحب النفس لما صار أسطورة وكان حرا طليقا كما يقول الشاعر:

ولو كان أذكي قليلاً

لحطّم مرآته

ورأى كم هو الآخرون ...

ولو كان حُرّاً لما صار أسطورةً

فقد استوحى درويش هذه الأسطورة للإشارة إلى الإنسان المغرور الذي لا يرى غيره ولا يتشغل باله إلا بمصلحته وهو إما أن يكون ذلك المحتل الغاصب الذي وطئ الأرض المقدسة بأناية وغرور من غير أن يفكر بالمفاهيم الإنسانية الراقية أو ذاك المغبون الذي باع أرضه الخضراء، ووطنه الحبيب بثمان بخس للغرور الذي سلب الحرية منه.

وما يلفت النظر أن الرمز الديني قد يصبح رمزا أسطوريا كشخصية النبي المسيح (عليه السلام).

3 - 4 - الإيحاء الطبيعي

لجأ الشاعر الفلسطيني إلى استخدام الرمز لانعدام الحرية في الأرض المحتلة آخذا رموزه من الأمور والأشياء المتعددة؛ خاصة من مظاهر الطبيعة والحيوانات. وقد تميز محمود درويش من بين شعراء فلسطين باللجوء إلى الرموز والإيحاءات الطبيعية في كثير من قصائده، منها: البحر، الزيتون، البرتقال، المرايا، السنديان، الحجر، الليل، القمر، الفراشة... والجدير بالذكر أن الدلالة الإيحائية لهذه الكلمات تتغير حسب الموضوع والمدلولات الشعورية الخاصة والجديدة.

ثمة تداخل بين الإيحاء الخاص (الذاتي) وبقية أنواع الإيحاءات الأدبية فمثلا قد يكون الرمز الطبيعي ذاك الرمز الذي يعبر عن تجربة الشاعر دون غيره بمعنى أن الشاعر يستمد من مظهر من المظاهر الطبيعية ويجعله رمزا يخص تجربته الشعرية فيكون رمزا خاصا، ولكن قد يأتي بعده من يستخدم هذا الرمز ليضفي عليه طابعا عاما.

ما يلمح لنا إثر قراءة تحليلية لإبداعات الشعراء الفلسطينيين الأدبية أن هناك تلازم وارتباط وثيق بين الطبيعة والإنسان الفلسطيني فالذي يعيش في الأرض المحتلة يعشق الطبيعة والأرض بطريقة مختلفة عن سواه لأن جوهر المأساة الفلسطينية يرتبط بالأرض لذلك أصبح كل ظاهرة من مظاهر الطبيعة الفلسطينية تحمل طاقة إيحائية جديدة.

انسياقا لهذا أصبحت الأرض في شعر المقاومة رمزا للهوية الفلسطينية، فهي تناضل بكل ما تملك من زهر ونبات وشجر وحجر، وهي الأساس في الهموم والآلام ومنها ينطلق الآمال والأحلام، وبها تتداخل النصوص الأدبية خاصة النصوص الشعرية التي تبدي مأساة الإنسان الفلسطيني.

من أبرز الشعراء الفلسطينيين الذين تشبثوا بالأرض في قصائدهم، محمود درويش الذي ارتبط حبه بالأرض، وبكل ما فيها وما له علاقة بها من دوال ومدلولات كالحجر والصخر والتراب والطين والرمل، والوحل، والماء والشجر والنبات والعشب حيث يتوحد جسده بالأرض (فؤاد السلطان، 2002م، 190). قضية درويش في قصائده هي التمسك بالأرض، بأعشابها وصخورها وتراثها وتراثها وفي سبيل الدفاع عن هذه القضية ولبيان أهميتها استخدم ما يرتبط بالأرض ليضفي عليه طاقة إيحائية، فالرموز الطبيعية تحمل عبئا ثقيلًا لتتطرق عن شاعر الأرض المحتلة وتعبر عن خلجاته النفسية.

التناس الإيحائي في شعر محمود درويش؛ قصيدة "لاعب النرد" أنموذجاً

ومن العناصر الطبيعية البارزة التي أخرجها الشاعر من جمودها ومحدودية دلالتها في قصيدة "لاعب النرد" والتي تتمظهر بقوة في الشعر الفلسطيني على المنهج التناسي يمكن الإشارة إلى ما يلي:

• الأرزة

الأرزة ترمز إلى الشموخ والتاريخ والتراث والصمود، وهي تحيط بالعلم اللبناني لتكون رمز لبنان عموماً والاستقلال والصمود والتضحية خصوصاً. وقد استخدم محمود درويش لفظة "الأرزة" رمزا للبنان في قصيدة "لاعب النرد" حيث يقول:

كان يمكن، لو كنت أبطأ في المشى،
أن تقطع البندقية ظلي
عن الأرزة الساهرة

يؤكد الشاعر أنه كان محظوظاً والصدفة هي التي غيرت مجرى حياته أكثر من مرة، فلو كان يمشى ببطء أكثر لما وصل إلى لبنان، أرض الأرزة.

• البحر

يشير البحر في الغالب صورة رمزية توحى بالقوة والعظمة والغموض، وقد قيل إنه يضرب به المثل في الخير والعطاء والكرم والتطهير، وهو من العناصر الطبيعية التي وردت بكثرة في الكتابات الإبداعية المعاصرة واتخذت أبعاداً جمالية وإنسانية، ولكنه لم يدخل في مدلول واحد وإنما ورد في سياقات مختلفة، وحمل دلالات متباينة تبعاً لتجربة كل شاعر ورؤياه الخاصة.

تميز استعمال درويش لرمز البحر وتعددت استخداماته بتعدد السياقات، إذ نجده يحتل مساحات مهمة في شعره، ولكن في البداية لم يُخرج البحر عن مدلوله المباشر واستخدم بدون أية دلالة إيحائية، إلا أنه في المراحل اللاحقة من تجربته الشعرية يتخلى البحر عن دلالاته الأصلية ويزخر بدلالات رمزية متنوعة؛ الدلالة على الشعب الفلسطيني تارة، والدلالة على الرحيل والموت تارة أخرى (أغبال، د.ت، 150 - 151).
أما البحر في قصيدة "لاعب النرد" فقد أكسب دلالات متنوعة، مرة يستخدمه الشاعر على دلالاته الأصلية عندما يقول:

«كان يمكن ألا أكون مصاباً»

بجنّ المعلّقة الجاهليّة

لو أن بوابة الدار كانت شماليّة

لا تطلُّ على البحر»

ومرة أخرى يخرجّه عن دلّالته المباشرة ليتحوّل إلى رمز يحمل في طياته الموت عندما يقول:

«لا دور لي في المزاح مع البحر

لكنني ولدٌ طائشٌ

من هُواة التسكّع في جاذبيّة ماءٍ

ينادي: تعال إليّ!

ولا دور لي في النجاة من البحر

أنقذني نورسٌ آدميٌّ

رأى الموج يصطادني ويشلُّ يديّ»

وكأن الشاعر رمز بالبحر وأمواجه الطاغية إلى العدو الصهيوني الذي احتلّ الأرض المقدسة وغصب الحرية والاستقلال من أبنائها، وبالمقابل أهداهم الموت في أرضهم الموروثّة. فبذلك أصبح البحر والموج في هذه القصيدة رمزين للظلم والطغيان والتسلط، والغرق في البحر رمزا للضياع والشتات والهجرة. ثمة رمز آخر في هذا المقطع الشعري وهو النورس؛ الطائر الذي رمز به درويش إلى من أنقذه من سطوة أمواج البحر الطاغية، فهو رمز للتفاؤل والنجاة من الظلم والضياع والشتات.

• الحجر

لقد أصبح للحجر دور بارز في المقاومة والنضال منذ فجر التاريخ في فلسطين وسوف يظل رمزا لانتصار الحق على الباطل، والعدل على الظلم. الحجر رمز الصمود والنبات، والخلاص من العدو الصهيوني، رمز الثورة والتحدى، وهو من أول أدوات الانتفاضة في تحقيق الأمل الفلسطيني في العودة إلى الوطن، ولكن في هذه القصيدة تغير مدلول الحجر الإيحائي ليصبح رمزا لمن فقد الحرية والصمود وأصبح صدى لغيره:

وأنا لم أكن حجراً صقلته المياه

فأصبح وجهاً

و«الصخرة» كالحجر رمز للصمود والمقاومة وقد احتفظ بدلالاته المألوفة المتعارفة في هذه القصيدة حيث

يقول الشاعر:

بل لأن نبياً تمشَى هناك
وصلَى على صخرة فبكتُ
إن العلاقة بين النبي والصخرة وصلاة النبي عليها تدل على قدسية الصخرة في مسيرة الحياة الفلسطينية وفي ارتباطها بالأرض المقدسة الخضراء.

• الريح

تأتى الريح تارة رمزاً للعدو، وتارة أخرى يرمز بها للثورة، لكنها في شعر محمود درويش رمز للمعاناة والمآسى التي أصابت الشعب الفلسطيني، الريح رمز للموت، والاحتلال، والظلم الصهيوني (فؤاد السلطان، 2002م، 168 - 169)، وقد احتفظت بهذا المدلول الإيحائي في قصيدة "لاعب النرد"، فهي العادية التي أخذت الأمور بيد القدرة، وأصبحت إرادته فوق إرادة الإنسان بحيث يقدر على تغيير مصير الحياة:

كان يمكن أن لا أكون سنونوً
لو أرادت لى الريح ذلك،
والريح حظُّ المسافر...
شمألتُ، شرقتُ، غربتُ
أما الجنوب فكان قصياً عصياً علىّ
لأن الجنوب بلادى
وفي سطور أخرى تصبح الريح عاتية باغية تعبت بحياة الإنسان الفلسطيني حيث يقول:
تحيا الحياة!

على رسلك احتضنينى لئلاّ تبعترنى الريحُ
حتى على الريح، لا أستطيع الفكاك
من الأبجدية
يرى درويش أن ريح الاحتلال تهب بل تعصف على حياته بقوة تفوق قدرته وبإمكانها أن تحكم عليه بالشتات والرحيل إلى مكان بعيد عن الأرض المقدسة.

• الزيتون

الزيتون شجرة عريقة تعبر عن تاريخ وتراث الشعب الفلسطيني على أرضه منذ أقدم العصور والقرون فهو رمز للشعب الفلسطيني، رمز للصمود الذي عانق الأرض المقدسة من زمان بعيد بحيث صار عضوا من أعضائها وعلمنا من أعلامها، رمزا للوطن وللأرض وللفلسطين. «الزيتونة رمز الخلود، ووشم الدعة والسلام، وأمل الناجين، وسرمدية البقاء، الزيتون هي عشيقه الأرض، باعثة الأمل والعطاء، حاضنة الحياة» (أبو شمر، 2008م)، وهي قد تمثلت في القصيدة لتدل على مدلولها الإيحائي المؤلف في الأدب العربي:

لو أن ذاك المكانَ الزراعى لم ينكسرُ
ربّما صرتُ زيتونةً

• السنونو

السنونو رمز للفلسطينى اللاجئ الذى سيعود إلى وطنه بعد تحمل المشاق ومواجهة الشدائد والصعاب، السنونو هو الشاعر المسافر الذى أراد الاحتلال أن يعيش متشردا، حيث يقول:

كان يمكن أن لا أكون سُنونوً
لو أرادت لىَ الريحُ ذلك،
والريحُ حظُّ المسافر...
شَمَّلتُ، شَرَّقْتُ، غَرَّبْتُ
أما الجنوب فكان قصباً عصبياً علىَّ
لأنَّ الجنوب بلادى
فصرتُ مجاز سُنونوً لأحلق فوق حطامى
ربيعاً خريفاً...

إن الربيع فى هذا المقطع الشعري رمز للحياة، والخريف رمز لانتهاه دورة الحياة، رمز لنهاية الحياة والاستعداد للدخول فى حياة جديدة، رمز للموت من أجل حياة جديدة؛ فصل الخريف هو فصل التجريد وإظهار الحقيقية التى لا زيف فيها، والشاعر هو الطائر المهاجر الذى يحلق على ما تحطم من قلبه فى الأرض المحتلة ربيعاً خريفياً ينتظر اليوم الذى ستجمع فيه الأشلاء المبعثرة من جسد وطنه الحبيب بعودة أبنائه المتشردين؛ ينتظر العودة للوطن والتجديد فيه مع الربيع الذى تلبس فيه الطبيعة ثوبا جديدا كما ينتظر أن تنزع

الأرض المحتلة قناع الموت والظلم والاضطهاد مستعدة الدخول في حياة جديدة مع الخريف الذي تنزع الطبيعة ثوبه القديم من أجل حياة جديدة.

• الغراب

أصبح للغراب نصيب الأسد من معتقدات العرب فهو رمز الشؤم والفراق. الغراب طائر شؤم - في الأعم الأغلب - فقد أجمعت الحضارات القديمة ومعظم الحضارات الحديثة على التطير من هذا الطائر، وليس أدل على التشاؤم من هذا الطائر من اشتقاق اسمه مع الغرب والغربة والاعتراب والغريب من مادة واحدة. والشعر الشعبي الفلسطيني أكثر توظيفاً لهذا الرمز الدال على التشاؤم والفراق (ماهر محمد عودة، 2008م، 186، 188)، ولربما يعود الأمر إلى لونه الأسود الذي أصبح رمزاً للموت والغربة، أو إلى اسمه المشتق من الغرب بمعنى الموت كما أشير إليه آنفاً:

حرفاً فحرفاً، ونزفاً ونزفاً

على هذه الكنية

بدم أسود اللون، لا هو حبر الغراب

ولا صوته،

بل هو الليل مُعْتَصراً كَلَّهُ

فقد اجتمعت اللون الأسود والغراب والليل في هذا المقطع الشعري ليدل على ذاك السواد الذي خيم على الأرض المحتلة وأبنائها من ناحية العدو الغاصب.

• القمر

عودنا الشعراء العرب أن يتخذوا من القمر أداة تؤدي عدة أغراض في شعر الغزل فقد كان القمر المشبه به المثالي في وصف محاسن المحبوبة، والصدر الرحب الذي يبثونه شكواهم، والخل الوفي في ليالي الوحدة والسهاد، ولكن القمر في شعر درويش انتقل من مجرد رمز طبيعي إلى رمز يوحى بدلالات عدة (أغبال، دت، 156)، من هذه الدلالات يمكن الإشارة إلى ما يلي:

القمر كان الحقيقة المخيفة التي كانت متوارية فانكشفت وهي حقيقة لا تكذب كما أن المرايا لا تكذب بل تكتفي بعكس الحقيقة كيفما كانت. والقمر هو الغد الذي لا مفر منه. القمر مصدر إشعاع ونور وبذلك يتحول إلى

رمز لكل ما ينير الدرب ماديا ومعنويا وما ينير النفس ويشرع أبواب الأمل ويعيد الثقة فى المستقبل والحلم بالنصر الذى أصبح يبدو مستحيلا، وفى سياق آخر تتطور دلالة القمر فيصبح معادلا للأرض التى تحولت إلى مجرد حلم وذكرى بعيدة (المصدر نفسه، 156 - 157)، والقمر رمز الحب والجمال وقد يتحول عند محمود درويش إلى رمز العدو الصهيونى (فؤاد السلطان، 2002م، 169)، ولكن فى قصيدة "لاعب النرد" بقى القمر ذلك الأمل المرجو الذى ينتظره الشعب الفلسطينى:

وخفتُ على قطتى وعلى أرنبى
وعلى قمر ساحر فوق منذنة المسجد العالية
القمر هو الأمل الذى أصبح قرينا لمنذنة المسجد الذى يمثّل دين الإسلام كما سبق أن أشرنا إلى دلالاته الإيحائية، هو الأمل بالنصر وبالغد المشرق الزاهى لأبناء الشعب الفلسطينى.

• الليل

الليل والظلام الدامس الذى يخيم على قصائد شعراء المقاومة ليس إلا رمزا للموت والظلم والشر والاضطهاد والغربة التى يعانى منها الشعب الفلسطينى. يوظّف درويش الليل فى قصائده باعتباره رمزا طبيعيا على القسوة والظلم الذى أوقعه العدو الصهيونى على الشعب الفلسطينى (فؤاد السلطان، 2002م، 165). تكررت لفظة «الليل» فى قصيدة "لاعب النرد" عدة مرات، منها قول الشاعر:

هو هذا الذى يكتب الآن هذى القصيدة
حرفا فحرفا، ونزفا ونزفا
على هذه الكنبه
بدم أسود اللون، لا هو حبر الغراب
ولا صوته،
بل هو الليل معتصرا كلّه
قطرة قطرة، بيد الحظ والموهبة
تحول اللون الأسود فى قاموس شعراء فلسطين إلى رمز للغربة التى بات الفلسطينى يعايشها فى وطنه الحبيب أو بعيدا عنه. يوحى الليل بالسهو والمعاناة ولكن قد يتغير لونه الحالِك إلى الأخضر اللامع إن انضم إلى الأرض المقدسة وأصبح جزءا لا يتجزأ عنها فتتحول دلالاته الرمزية إلى الخصوبة التى يومئ إليها اللون الأخضر الساطع من الأرض المقدسة الخضراء:

أحبك خضراء، يا أرض خضراء تُفأحة
تتموج في الضوء والماء، خضراء، ليلىك
أخضر فجرك أخضر فلتزرعيني برفق

تتوحد الألوان في جسد الأرض المحتلة ليبرز لون واحد وهو الأخضر الدال على الأمل الفلسطيني في عودة الخصب إلى الأرض المحتلة، فلا تكون سواد الليل وضوء الفجر إلا باللون الأخضر المتلائي الذي يسطع نوره من الأرض المقدسة إلى الآفاق البعيدة.

• الماء

لقد وظّف محمود درويش في قصيدة "لاعب النرد" الماء كرمز للصفاء والنماء والخصوبة والانشراح النفسي، رمز للحياة والصمود والمقاومة وتحرير الإنسان من العبودية. الماء هو تحقيق أمل الفلسطيني بالعودة إلى وطنه المقدس بعد الهجر والظلم والاضطهاد:

لولاه، لولا السراب، لما واصل السير
بحثاً عن الماء هذا سحاب - يقول
ويحمل إبريق آماله بيد وبأخرى
يشدُّ على خصره ويدقُّ خطاه على الرمل
كى يجمع الغيم في حفرة والسراب يناديه
يُغويه، يخدعه، ثم يرفعه فوق: إقرأ
إذا ما استطعتَ القراءة واكتب إذا
ما استطعت الكتابة يقرأ: ماء، وماء، وماء

لقد أصبح الماء أغنية الفلسطيني في كل يوم، فهو يقرأ وينشد هذه الأغنية ويكررها كل يوم علّه يجد مهرباً من معاناته ويحظى بالماء الصافي النقي، بالعودة إلى ما أخذ منه ظلماً وجوراً، علّه يجد الحرية والاستقلال في وطن ورثه عن الآباء والأجداد؛ وطن بلون أخضر يتموج في الضوء والماء، كما يقول:

أحبك خضراء، يا أرض خضراء، تُفأحة
تتموج في الضوء والماء، خضراء، ليلىك

أخضر، فجرک أخضر، فلتزرعینى برفق

والجدير بالذكر أن المقطع الأول فى تناص مع سورة العلق، الآية ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق 96: 1) وهى أول آية نزلت على النبى محمد (&) فكأن درويش يرمز بقوله «اقرأ ... وقرأ: ماء، وماء، وماء» إلى التحول الذى حدث بنزول هذه الآية الشريفة فى النبى (&) وفى الأمة العربية، والآن بعد مضى أكثر من أربعة عشر قرناً بدأ ينشد شاعر عربى مثل هذا التحول للأمة الفلسطينية ويلح فى العثور عليه بترديد لفظة الماء التى تحمل فى طياتها رمزية الحرية والاستقلال.

• الهدهد

إن استعمال الهدهد كرمز للفلسطينيين يحمل فى ثناياه دلالتين مختلفتين، الأولى هى أن الهدهد طير مهاجر لا يبحث عن موطن وعلى غرار عادة الطيور التى تحن إلى موطنها فالهدهد طير مستمر الرحيل يشيد عشه فى أى بقعة حل فيها وهكذا أصبح الفلسطينى فى فترة ما بعد الرحيل الثالث، والهدهد أيضاً هو الدليل فى صحراء التيه التى ترمز فى شعر درويش إلى حالة الضياع التى وصل إليها المهاجرون. والدلالة الأخرى هى التى ترتبط بقصة الهدهد والنبى سليمان (ص) كما جاء فى القص القرآنى فهو من نقل أخبار بلقيس ملكة سبأ إلى سليمان (ص) (عسقلان، 2009م)، أما الهدهد فى قصيدة "لاعب الترد" فقد رمز به الشاعر إلى هدهد سليمان (ص) الذى أتى بخبر الملكة بلقيس وكان دليلاً صادقاً فوصف الشعر بالهدهد يدل على أنه وسيلة للتعبير عن الآلام والآمال وهو أداة للتغيير؛ أداة لخلق واقع متميز مشرق، حيث يقول:

كان يمكن أن يريح الشعر أكثر لو

لم يكن هو، لا غيره، هُدُهداً

فوق فُوَهَّةِ الهاوية

فالشعر الفلسطينى دليل المجتمع يحمل رسالة على أكتافه فلو لم يكن للشعر وظيفة يؤديها تجاه الشعب الفلسطينى لكان من الممكن أن يتغير مسيرة تطوره. والجدير بالذكر أن الهدهد من الرموز الشعرية المشتركة بين الرمز الطبيعى والرمز الدينى - التاريخى.

• رمزية الألوان

من الأمور التى تلفت الانتباه ميل شعراء المقاومة إلى تلوين قصائدهم بالألوان التى تتناسب مع مرحلة الانتفاضة من ناحية ويكثر وجودها فى الطبيعة الفلسطينية من ناحية أخرى أو توحى بالحالة النفسى للإنسان

الفلسطيني. فقد أصبح للألوان في الشعر الفلسطيني طابع إيحائي خاص بحيث نرى أن شعراء الأرض المحتلة يستخدمون الألوان الرمزية للتعبير عن آلامهم وآمالهم في الأرض المحتلة بطريقة مختلفة عن بقية الشعراء. من أبرز هؤلاء الشعراء يمكن الإشارة إلى محمود درويش الذي مال إلى تلوين قصائده بالألوان التي يكثر وجودها في الطبيعة الفلسطينية والتي توحى بالحالة النفسية، حيث يقول:

أحبك خضراء، يا أرض خضراء تُفأحة
تتموج في الضوء والماء، خضراء، ليلى
أخضر فجرك أخضر فلتزرعيني يرفق
برفق يد الأم، في حفنة من هواء
أنا بذرة من بذورك خضراء

يمكننا أن نستخرج من ألقاظ هذا المقطع: اللون الأخضر (أرض خضراء)، والأسود (ليلك)، والأبيض (الضوء والماء والفجر)، والأحمر (التفاحة). إذا رتبنا هذه الألوان الأربعة فهي تشكل العلم الفلسطيني المكوّن من الأخضر وهي من الألوان المتكررة في القصيدة، والأسود، والأبيض، والأحمر.

إن الألوان التي ورد ذكرها في القصيدة على نوعين: الألوان التي جاء ذكرها مباشرة (الأسود والأخضر والأزرق)، والألوان التي أشير إليها بشكل غير مباشر (الأبيض والأحمر)، وأما بالنسبة إلى الدلالة الإيحائية لكل هذه الألوان فتجدر الإشارة إلى أن الأسود رمز الظلم والموت والغربة التي يعاني منها الإنسان الفلسطيني كما سبق أن أشرنا إليه، «فاللون الأسود عند الساميين رمز اللعنة، تلك التي أنزلها نوح على ابنه حام عندما غضب عليه، ويعزى سواد لون الحاميين إلى تلك اللعنة، وصوّر إله الموت في ديجور وهو يهبط على الناس بجناحين مهولين مرتدياً رداءً أسود، وزعم بعضهم أن مناة، اللات والعزى هن بنات الله وآلهات القمر، ومناة هي القمر المظلم» (ماهر محمد عودة، 2008م، 75).

واللون الأخضر يدل على الخصب والنماء والمستقبل الزاهر الذي تطلع فيه شمس الحياة ويزبر الصفاء على الأرض المقدسة بعودة أصحابها اللاجئين. والأزرق رمز لكل خير وجمال، رمز للطهر والبراءة المدفونة في الأرض المقدسة. والأبيض رمز للطمأنينة والسلام، واللون الأحمر رمز للحزن والكآبة والألم نتيجة سيلان الدم الفلسطيني في الأرض المقدسة الخضراء.

فی خاتمة هذا المبحث يجدر القول بأن ما يشترط في توظيف التراث الأدبي في العمل الإبداعي هو أن يكون التراث أداة لتوليد أصالة جديدة مرتبطة بالأصالة التليدة، ومغايرة لها في نفس الوقت. فالأصالة شيء متجدد لا جامد، والنقل الحرفي للتراث الثقافي ولسواه تجربة عقيمة (أحمد كلاب، 2005م، 102).

نتائج البحث

"لاعب النرد" سيرة ذاتية لمحمود درويش وهو من أبرز شعراء فلسطين كرّس حياته لفنه وفنه لقصيته الإنسانية؛ قضية الوطن الحبيب الذي وقع في الأسر. تميزت هذه القصيدة من بين سائر قصائد الشاعر بخصائص فنية بارزة مما جعلها مادة خصبة للدراسات الأدبية والنقدية. وقد حاولت هذه الدراسة المتواضعة أن تسلط الضوء على جانب من خصائص القصيدة الفنية والأدبية، وهي الرموز التي استمد منها الشاعر كوسيلة للتعبير الإيحائي، والتي على منطلق التناص مع النصوص الأخرى، وتوصلت في النهاية إلى نتائج من أهمها ما يلي:

- استطاع درويش أن يحول اللغة الشعرية إلى لغة رمزية تستمد قدرتها الإيحائية من تخطيها الواقع، لكنه لم يفقد الوضوح الفني في قصائده لأنه شاعر مرتبط بالجماهير.

- استطاع درويش أن يحول كل رمز من رموزها التي تتداخل مع الإبداعات الأدبية الأخرى إلى رموز التحدى والنضال أمام واقعه المرّ حتى في قصيدة "لاعب النرد" التي تصلح أن تكون سيرة ذاتية للشاعر.

- قراءة الرمز في شعر محمود درويش تعطينا صورا جلية وواضحة من حياة الشاعر النفسية والاجتماعية، كما أنها تكشف عن ثقافات توارت عنا بفعل عمق الزمان وبعد المكان.

- اهتم درويش بالبحث عن الأسطورة في التراثات الإنسانية المختلفة، كالأساطير العربية واليهودية والمسيحية والبابلية والإغريقية والفرعونية.

- لقد حظيت الرموز الطبيعية بنصيب وافر في قصيدة "لاعب النرد"، بحيث نرى أن نسبة عالية من الإيحاءات والرموز الأدبية التي تتصف بميزة المشابهة بين الشاعر والشعراء الآخرين، خاصة الشعراء الفلسطينيين يستوحها الشاعر من الطبيعة.

مصادر البحث ومراجعته

- ابن منظور، محمد بن مكرم (1988م). لسان العرب. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- أحمد كلاب، جميل إبراهيم. «الرمز في القصة الفلسطينية القصيرة في الأرض المحتلة.» الأطروحة لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، الجامعة الإسلامية بغزة، فلسطين، كلية الآداب، (2004م - 2005م).
أغبال، رشيدة. «الرمز الشعري لدى محمود درويش "الرمز الطبيعي"». علامات 26 (د.ت): 149 - 160.
الجندي، درويش (د.ت)، الرمزية في الأدب العربي. ط 1. القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
خليل جحا، ميشال (2003م)، الشعر العربي الحديث من أحمد شوقي إلى محمود درويش. بيروت: دار العودة.
- خليل الخلايلة، محمد، «قراءة في ديوان "لماذا تركت الحصان وحيداً؟" لمحمود درويش.» مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها (2009م): 257 - 300.
- خمري، حسين. «إنتاج معرفة بالنص.» مجلة دراسات عربية 23 (1987م).
زارع زرديني، مرضيه. «ظاهرة التناص في لغة محمود درويش الشعرية.» التراث الأدبي 3 (1388هـ-ش): 79 - 100.
- الزعيبي، أحمد. التناص نظرياً وتطبيقياً. ط 2، عمان: مؤسسة عمرية.
- زيدان، رقية. «أثر الفكر اليساري في الشعر الفلسطيني شعر محمود درويش - سميح القاسم - توفيق زياد.» الأطروحة لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، معهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة، كلية الآداب للدراسات العليا، (2009م).
- عبد الفتاح شاكر، تهناني. «تجليات أسطورة البعث في ديواني "لا تعتذر عما فعلت" و"كزهر أو أبعث" لمحمود درويش.» مجلة جامعة دمشق 26 (2010م): 159 - 203.
- عبد النور، جبّور (1984م). المعجم الأدبي. ط 2. بيروت: دار العلم للملايين.
- عبد الهادي، محمد. تجليات رمز المرأة في شعر "محمود درويش". جامعة محمد خيذر بسكرة (2009م): 1 - 11.
- علي عبدالرحمن جعيد، عبدالرحمن. «على الخليلى أدبياً.» الأطروحة لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين، كلية الدراسات العليا، (2006م).
فؤاد السلطان، محمد. «الرموز التاريخية والدينية والأسطورية في شعر محمود درويش.» مجلة جامعة الأقصى 14 (2010م): صص 1 - 36.

التناس الإيحائي في شعر محمود درويش؛ قصيدة "لاعب النرد" أنموذجا

فؤاد السلطان، محمد. «صورة النكبة في شعر محمود درويش». مجلة الجامعة الإسلامية 10 (2002م): 153 - 194.

ماهر محمد عودة، عمر. «البكائيات في الأدب الشعبي الفلسطيني». الأطروحة لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين، كلية الدراسات العليا، (2008م).
النقاش، رجاء (1972م). محمود درويش شاعر الأرض المحتلة. ط3. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

هلال، محمد غنيمي (1987م). الأدب المقارن. بيروت: دار العودة.

المراجع الإلكترونية

1. سمات التعبير الرمزي في الأدب الملتزم (2005م). نقلا عن شبكة الفصحى لعلوم اللغة العربية:
<http://www.alfaseeh.com/vb/archive/index.php/t-9213.html>
2. نقلا عن موقع الشاعر محمود درويش:
<http://darwesh.4fun4.net/Life.php>
3. مراجعة الرمز والأسطورة (2010م). نقلا عن منتديات ناصر قصر البخارى:
<http://nasser26keb.3arabiyate.net/t300-topic>
4. أبو شومر، توفيق (2008م). بذرة خضراء .. آخر آمانيات محمود درويش. نقلا عن منتديات:
<http://www.palissue.com/vb/palestine148/issue51798>
5. عسقلان، زين (2009م). معالجة الذاكرة في شعر محمود درويش. نقلا عن مدونة:
<http://shobaki.elaphblog.com/Posts.aspx?U=1137&A=22941>

Acknowledgements

We wish to thank the two anonymous reviewers for their constructive comments

Declaration of Conflicting Interests

The author(s) declared no potential conflicts of interest with respect to the research, authorship and/or publication of this article.

Funding

The author(s) received no financial support for the research, authorship, and/or publication of this article.

REFERENCES

- Abdel Nour, J. (1984). *Literary Description*. 2th edition. Beirut: Dar al-Laumlamlan.
- Abdul Fatah Shaker, T. (2010) "*The description of the legend of return in two sections from "Do Not Apologize for Your Deed," and "like a blossom or over it" from Mahmoud Darwish*", The Journal of Damascus University, pp:159-203.
- Abdul Hadi, M. (2009). The manifestation of feminine symbol in the poems by "Mahmoud Darwish". University of Mohammad Khizar Baskara, pp: 1-11.
- Ahmed Kelab, J. I. (2005). *Symbol in the short story of Palestine*. MA Thesis in Arabic Language and Literature, Islamic University of Gaza, Palestine, Faculty of Literature.
- Ali Abdolrahman Jahed, A. R. (2006). "*Ali al-Khalili al-Diba*" Master's thesis in Arabic Language and Literature, University of Al-Najah Al-Vataniyah in Nablus, Palestine, University of Higher Education.
- Al-Jondi, D. (No date). *Symbols in Arabic literature*. 1th edition. Al-Qaharah: Nizh'a al-Mursar lltabaa'ta and publication & distribution.
- Al-Naghash, Raja (1972). Mahmoud Darwish, the poet of the Occupied Land. 3th edition. Beirut: Arabic Institute of Lessons and Publications.
- Al-Za'bi, A. (No date), *Intertextuality in theory and practice*. 2th edition, Oman: Life Institution.
- Eghbal, R. (No date). "*The poetic symbol in the poems of Mahmoud Darwish as a natural symbol*". Journals of Symbol 26, pp:149-160.
- Fouad Al-Sultan, M. (2010). "*Historical, religious, and mystical symbols in the poem of Mahmoud Darwish*." Journal of the University of Al-Aqsa 14, pp: 1-36.
- Fuad al-Sultan, M. (2002) "*The Image of Misery in Mahmoud Darwish's Poetry*." Islamic University Journal, No. 10, pp. 153-194.
- Hilal, M. G. (1987). *Comparative literature*. Beirut: Dar al-Dawah.

Religious Intertextuality in Mahmoud Darwish's Poetry: A Case Study of the "La'ab Al-Nard" Ode

Ibn Manzoor, M. B. M. (1988). *Language of the Arabs*. Beirut: Dar Ehya Al-Trath Alarabi.

Khalil al-Khalayeleh, M. (2009) "*Reading in the work*" *Lemaza Tarakata al-Hessan Vahida? "From Mahmoud Darwish."* Journal of Linguistics and Literature, University of A'm-al-Qari: pp. 257-300.

Khalil Jaha, M. (2003), *Contemporary Arab poetry from Ahmad Shoghi to Mahmoud Darwish*. Beirut: Dar al-Dawah.

Khumri, H. (1987) "*Understanding the Text.*" Arabic Research Journal, No. 23.

Maher Mohammad Odo, O. (2008). "*The Mourning of Poems in the Palestinian National Literature*, MA Thesis in Arabic Language and Literature, Al-Najah Al-Vataniyeh University in Nablus, Palestine, Faculty of Higher Education.

Zaidan, R. (2009) "*The Effect of Rightful Thought in Palestinian Poetry, A Case Study in Mahmoud Darwish Poetry-Samih Al-Qassem – Tofiq Aiyad* – PhD dissertation on Arabic Language and Literature, Arabic Research Association, Al-Qaharah, Faculty of Literature and Advanced Studies.

Zare Zardini, M. (2009). "*Intertextuality in the poems of Mahmoud Darwish.*" Literary Heritage, No. 3, pp. 79-100.